الأستاذ بيرم كمال

مقياس المجتمع وفعالياته

السنة الأولى ماستر حديث'

المحاضرة 4

فئة اليهود بالجزائر العثمانية

يرجع التواجد اليهودي بالجزائر إلى آلاف السنين وكان العهد العثماني هو الفترة التي عرفت فيها الحياة اليهودية تطورات عديدة على جميع الأصعدة والتي غيرت بينتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وأثرت على هيكلتها الطائفية الداخلية وحتى على دورها السياسي[1].

ومما ساعد على اندماج اليهود في الحياة العامة بالمدن الجزائرية ثقة الحكام الأتراك فيهم وتفضيل الأندلسيين التعامل معهم نظرا لكون أغلب اليهود ذوي أصول أندلسية، ويتشابهون معهم في طرق العيش وأسلوب الحياة والاشتغال في المهن اليدوية[2].وقد عمل اليهود في مختل المجالات الاقتصادية قد اشتغلوا فيا لحرب خاصة حرف الصياغة والصباغة والغزل والطرز، وكانوا يتولون إعداد ملابس الديات وعائلاتهم، كما عملوا في صناعة الزجاج وصناعة مقابض البنادق والصيد البحري واختص بعضهم في مراقبة صناعة النقود[3]، كما عمل فقراء اليهود في تنظيف الشوارع والأزقة ودفن جثث الموتى الذين ينفذ فيهم حكم الإعدام[4].وقد أدى اختلاف المستوى المعيشي بين اليهود إلى اختلاف نمط المعيشة ونوعية المسكن، فالمساكن الفخمة كانت من نصيب الأغنياء بجوار مساكن الطبقة الحاكمة أو أغنياء الحضر، في حين سكن فقراء اليهود في الحارات[65].

لقد كان من نتاج حركة الهجرة، وتوافد العناصر اليهودية على شمال إفريقيا أن تكّونت جالية يهودية مختلفة الفئات والأصول، وظهرت خلال العهد العثماني في الجزائر ثلاثة [7] فئات أساسية لم تشكل وحدة عنصرية عرقية، بل جماعات ارتبطت بالدين فق[، وظهر الاختلاف الشديد بينهم في الجانب الثقافي واللغوي، وحتى اللباس والعادات والتقاليد ونستطيع تقسيم الجماعة اليهودية التي سكنت الجزائر العثمانية الى ثلاثة فئات:

الفئة الأولى :واو الطوشابيم وهم اليهود الأهاليتكونت هذه الفئة نتيجة الهجرات الأولى، بالإضافة إلى العدد الذي تهود من البربر وقد يؤرخ لبداية الهجرة إلى ما يقرب 300سنة؛ أي منذ قدوم الفينيقيين إلى شمال إفريقيا لممارسة التجارة، لكن دون جزم لغياب الأدلة، واستمر وجود اليهود خلال العهد الروماني والوندالي والبيزنطي، وآخر هجرة عرفتها المنطقة قبل الفتح الإسلامي ما بين سنتي 612م و613م، كانت من إسبانيا حينما اعتلى العرش الملك "ششبرت" القوطي الذي أقر مبدأ اضطهاد اليهود، متبوعين بهجرة

يهود خيبر حوالي 628م، هذا وقد صحبت أعداد من اليهود الجيوش الفاتحة الإسلامية، والتحقت أعداد أخرى من اليهود بالمنطقة بعد فترة قريبة من الفتح وهم من يهود العراق وسورياأو التوشابيم [8] الذين احتفظوا بعقيدتهم وشكلوا خلايا اجتماعية ودينية متماسكة وقاوموا المسيحية والإسلام [9]، لكنهم إلىحد بعيد تأثروا بالحياة الاجتماعية المحلية، وصفهم "شارل أندري جوليان":« بالجهلة البؤساء الذين كانوا قد اعتمدوا لباس المسلمين وتخلقوا بأخلاقهموكان يطلق عليهم اسم "أصحاب العمامةوقد لبس اليهود الأهالي الذين عاشوا ضمن قبائل جزائرية أنواع الثياب التي لبسها مضيفوهم، وتكلموا اللغة ذاتها (قد تكون العربية أو لهجات محلية)، مع فارق بسيط في اللباس خاصة في عصابة الرأس تميزا لهم عن المسلمين، وعاشت الكثير من العائلات اليهودية في الخيم وظهر عليها الطابع البدوي القوي(، وحتى النساء اليهوديات لبسن مثل المسلمات عدا أنهن لم يكن يغطين وجوههن(وأضاف "روزي": أنهن كن يتجنبن وشم وجوههن،مثل النساء المسلمات، لأنّ تعاليم التوراة تمنع هذاالنوع من الزينةوالأصل أن الإسلام أيضا يمنع هذا النوع من التجميل، مما يؤكد أن معرفة الأوروبيين بالمجتمع الجزائري كانت سطحية.[10]

وتحدث قسم من اليهود الأهالي العربية الدارجة حتى وصفوا بـ"عربفون" (كما استخدموها في الكتابة حالهم حال المسلمين مع الفارق أنهم استخدموا الحروف العبرية في الكتابة العربية ، واشتغلوا بالزراعة والرعي مثل بقية السكان، وكانوا منتشرين- ليسبكثرة- في أعماق الريف لدرجة أنّ بعض الرحالة الأوروبيين دهشوا لرؤيتهم في مناطق نائية أوائل القرن التاسع عشر(لقد كانت درجة الانصهار والاندماج لهذه الفئة في المجتمع الجزائري كبيرة جدا، حتى أطلق عليهم المسلمون تسميةيهود العرب أو اليهود الأصليون، وقابلهم الأوروبيون بلفظ "les juifs indigènes"أي اليهود الأهالي، ولقبهم البعض الآخر بـ"الشكلين"[11] تميزا لهم عن بقية الفئات اليهودية التي عاشت في الجزائر[12]

ويكون حسب البعض أن بعض العائلات من اليهود الأهالي حملت ألقابا عربية، خاصة تلك العائلات التي امتدت أصولها وجذورها إلى الجزيرة العربية وبلاد المشرق، كما حملت عائلات أخرى ألقابا محلية أي لها دلالات ومعاني وجدت في اللهجات المحلية لأهل بلاد المغرب، وإن كانت بنسب قليلة كعائلة ابوقاية أو بقاية وعائلة علوش أو عيوش، عائلة زرافة، عائلة شيش بورتيشاواطلان او نجار اومشيش أو أمشيش التي تعني القط باللغة الأمازيغية) إذن شكل اليهود الذين التحقوا بشمال إفريقيا منذ القديم خاصة من المشرق، بالإضافة إلى القسم الذي تهود من البربر، وبعض الوافدين زمن الفتح الإسلامي، بتركيبتهم البسيطة المندمجة مع المسلمين

الفئة الثانية: او الميغورشيم :[13]هي فئة اليهود النازحين من أوروبا خاصة المطرودين(على رأسهم

يهود إسبانيا(، الذين تعرضوا للتمييز العنصري والحقد الصليبي واضطهاد محاكم التفتيشالإسبانية التي أسسها البابا أواخر القرن الخامس عشر ميلادي (1471)ويشير "لوجي دي تاسي"إلى هجرة من إيطاليا عام 1342م ومن الأراضي المنخفضة عام 1350، ومن فرنسا عام 1403، ومن إنجلترا عام 1422، ومن إسبانيا عام 1462(، غير أن أهم فئة من بين هؤلاء والتي شكلت الفئة الرئيسة الثانية في الجزائر هي فئة اليهود الذين لجأوا من إسبانيا والبرتغال إلى الجزائر، عندما بدأت الدويلات والإمارات الأندلسية تتساقط تحت ضربات الإسبان المسيحيين (، فاضطروا إلى هجرة المكان الذي عاشوا فيه عصرهم الذهبي، وعرفوا فيه تحسن أوضاعهم الدينية والمعنوية والفكريةوازدهر فيه إنتاجهم الفكري الديني والفلسفي نتيجة احتكاكهم بالمسلمين العرب، فعرفت اللغة والشعر والموشحات تطورا كبيرا لذا لا عجب أنهم تفوقوا بعد وصولهم إلي الجزائر على إخوانهم القدامى.لقد عززت هذه الهجرات عدد اليهود في الجزائر، بداية بفضل المجموعة التي قدمت من جزر البليار مع نهاية القرن الثالث عشر[14] عام 1287، حيث بدأ التغلغل المسيحي في شبه الجزيرة الإيبيرية، وتشجع اليهود على الإقامة في الجزائر لما رأوا فيها من حكم معتدل، وأمن على أرواحهم وممتلكاتهم حسب شهادة حمدان بن عثمان خوجة(، فاستقروا بعدة مدن ك: قسنطينة، مليانة، المدية، تلمسان(التي تُضرب الأساطير حول وصول الحاخام "افرايم النقاوة" إليها، ممتطى أسد ا!!لجامه ثعبان!! وعند وصوله أحدث تغييرا على الجالية اليهودية بها، وأعطى لها حياة جديدة بالإشراف عليها ومساعدتها حتى مع الحكام للوصول إلى مكانة مرموقة (، وبينما تضاعف عدد اليهود في الجزائر، بل في شمال إفريقيا كلها أصبحت شبه جزيرة إيبريا من الناحية الرسمية خالية من اليهود، عدا اليهود المارانوالمتخفون (الذين كانوا قد تنصروا بالآلاف خوفا من بطش وظلم المسيحيين، وبقيت أعداد منهم تمارس دينها سرا(

ومن خلال تتبع محور الهجرة اليهودية من إسبانيا يمكن أن نستنتج ثلاث [15]موجات أساسية قادمة من هناك:

الموجة الأولى: والتي يؤرخ لها خلال القرن 7م، ما بين (612-613) هروبا من ملك القوط ششبت (sisebut)، الذي أقر مبدأ اضطهاد اليهود(.

الموجة الثانية: خلال أحداث عام 1391 بعد ما جرى في مدينة "سيفيل" " Séville" والمدن الأخرى(المشار إليها سابقا.

الموجة الثالثة: المرتبطة بالقرار الملكي لعام 1492 والمتعلق بطرد اليهود الجماعي(حال تمسكهم بدينهم، وكان اليهود قد عاشوا في إسبانيا والبرتغال تحت حكم المسلمين بعد الفتح عام 711م ثم تحت

حكم المسيحين، بعد تقلص حكم المسلمين وتراجعهم، الذي انتهى بسقوط غرناطة عام 1492، الخامس عشر، مع أن بقية لغات العالم كالإسبانية والألمانية قد تطورت.

وكانت الفئة المهاجرة الجديدة متميزة، ضمت نخبة من رجال العلم والثقافة العربية والعبرية واللاتينية[16]،كما حملت معها خبرتها التي اكتسبتها في الأندلس وهي إتقان الحرف والصنائع، وتفوق القادمون الجدد على إخوانهم القدامى، ورغم وجود تعاطف بين الطرفين إلا أنه لم يحدث اندماج بينهما[17]وأطلق على هذه الفئة في الجزائر تسميات عديدة منها: "اليهود الإسبان"، "اليهود الأندلسيون" أو "يهود الأندلس"، وعرفوا أيضا في الأوساط العبرية بـ "الميغورشيم"[18] وأيضا الكبوسين نسبة إلى الكبوسة الحمراء التي كانوا يضعونها على رؤوسهم، وكلهذه التسميات تعكس بالدرجة الأولى المكان الذي قدموا منه، وهم يصنفون حسب المجموعات اليهودية الكبرى ضمن الفرع المعروف بـ السفاراد " les sépharades" أو "saphardim" بالعبرية (سفارديم).

الفئة الثالثة: يهود ليفورنة[19]هي بصفة عامة فئة اليهود التجار الذين هاجروا إلى الإيالة هجرة اختيارية، من أجل التجارة والمصالح المادية، وارتبطوا بها على قدر مصالحهم، وشكلوا فئة ثقافية مميزة قائمة بذاتها تنتمي جغرافيا وثقافيا إلى أوروبا، واستقرارها مقارنة ببقية الفئات حديث العهد(حيث يعود إلى النصف الثاني من القرن السابع عشر، على أن توافدهم استمر طيلة القرن الثامن عشر()، والتاسع عشر ميلادي، وشكل يهود إيطاليا خاصة يهود "ليفورن" العنصر الرئيسي لهذه الفئة، والذين كانوا منتشرين في كل مدن الإيالة الجزائرية حسب شهادة: "لوجي دي تاسي" والذي أضاف أنهم كانوا يلقبون بـ "اليهود المسيحين" أو اليهود "النصارى" (lesjuifs francs) أو الإفرنج(كما لقبوا أيضا بـ "يهود ليفورن" أو الليفورنيون نسبة إلى منطقة ليفورن التي قدموا منها وعرفوا أيضا بـ القورنيونEl Gourniyan)أو القرانة (Les Grana) خاصة في تونس()أما عن أصل تسميتهم باليهود النصارى أو المسيحين فهو راجع إلى طريقة لباسهم الأوروبية [20].

وبداية من القرن الثامن عشر احتل الليفورنيون ومنهم أسرتي بكري وبوشناق المكانة والصدارة الأولى()،إذ أصبحوا أصحاب التجارة الرئيسة في البلاد، سواء تعلق الأمر بالسلع أو العبيد، وتمتعوا بامتيازات خاصة، إذا اعتبروا تجارا أجانب ورعايا لحكام البلدان التي قدموا منها، وكان بإمكانهم مغادرة البلاد في أي وقت أرادوا، مالم تكن عليهم ديون حالهم حال بقية الرعايا الأجانب المقيمين بالإيالة، وشملتهم حماية القنصل الفرنسي مباشرة، وكان بإمكانهم عرض قضاياهم على القنصلية الفرنسية، والإقامة أينما أرادوا ولبس ما شاءوا من اللباس[21].

وإذا كان عامة اليهود خاصة اليهود الأهالي، عاشوا حالة من البؤس والقذارة المنفرة[22]فإن وضع يهود ليفورن كان مختلفا، فقد كانوا يقيمون في أحياء مخصصة لهم، في بيوت نظيفة بل حتى جميلة جدا ومرتبة، كما امتلكوا بنايات في أماكن متعددة، وكانوا يتمتعون بمستوى رفيع في التجارة والمهن، وإتقان اللغات لأن منهم من سافر في أنحاء العالم، وكانوا يرسلون أبناءهم إلى أوروبا لاستكمال دراستهم وتكوين شخصيتهم العملية، وبالإضافة إلى معرفتهم بالسوق الداخلية للجزائر، كان لهم دراية بالسوق المتوسطية مما مكنهم بأن يصبحوا أرباب وسادة التجارة الداخلية والخارجية.

ومن الضروري الإشارة إلى نقطتين رئيستين حول يهود ليفورن الأولى: أن قدومهم إلى الجزائر أحدث انقلابا كبيرا في موازين القوى داخل الطائفة اليهودية، وتدريجيا استولوا على الزعامة ومراكز القوة والقرار، بل تجاوزوا يهود الأندلس(لتتسع دائرة نفوذهم المالية والتجارية والاقتصادية والسياسية، وتقوى شوكتهم داخل البلاد وخارجها، خاصة وأنهم أصبح منهم الدبلوماسيون شبه الرسميون للإيالة، لدى دواوين القنصليات الأوروبية، وقد غضب قنصل فرنسا جان بول سانت-أندرىJoh de saint André(غضبا شديدا، لأنهم ذهبوا إلى غاية التعهد فعلا للدول الأوروبية الصغيرة بالسلم أو الوعد بإعلان الحرب عليها، إذا قامت بإغضابهم، وكان محتما على الدول الكبرى قبول وتحمل اليهودي نفتالى بوشناق ممثلا عن الداي، لاستقبال الموفدين الخاصين بهم، لقد كانت هذه الشخصية تدير السياسية والاقتصاد بالجزائر، على مدى ربع قرن من الزمن، وكان قناصله الدول الأجنبية تخشى قوة ونفوذ هذا اليهودي التي فاقت قوتهم.

أما النقطة الثانية: فإن هجرة اليهود الليفورنين إلى الإيالة كانت هجرة اختيارية لأسباب اقتصادية تجارية، ورغبة من أصحابها في تحقيق المكاسب المادية، حتى أن بعض العائلات لم يهاجر كل أفرادها إلى الجزائر، وإنما هاجر رأسمالها وتكفل بعض أبنائها، أو وكلائها بالإشراف عن مصالحها في الإيالة، وعلى سبيل المثال لا الحصر اليهودي حاييمإليزار(HaimAliezar)الذي بقي في ليفورن بينما قدم ابنه "سلمون ليفي" (Salomon levi)، إلى الجزائر للإشراف على مصالح أسرته(، إذ رأت بعض العائلات أنه من الحكمة إنشاء فروع ووكالات لشركاتها في كل من الجزائر وتونس وطرابلس، وعينوا أقاربهم مشرفين لهذه الفروع، بهدف تسهيل الصفقات التجارية[23] التي كانت ناجحة لهم ولمن هاجر مباشرة منهم بفعل الحرية الكاملة التي كانوا يتمتعون

هوامش:

[11]معوشي)أمال، السياسية الفرنسية تجاه يهود الجزائر وأثرها في علاقتهم بالمسلمين الجزائريين (1830-

1870)، مذكرة ماجستير ، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2002-2003

[2]- سعيدوني: الجزائر في تاريخ العهد العثماني، المرجع السابق، ص 103.

[3]- شالر: المصدر السابق، ص 90-91.

[4]- حليمي، المرجع السابق، ص 257.

[5]معوشي)أمال، السياسية الفرنسية تجاه يهود الجزائر وأثرها في علاقتهم بالمسلمين الجزائريين (1830-

[6]- شالر: المصدر السابق، ص 91.

(7)- هناك من يقّسمهم إلى أقل أو أكثر، حسب أرزقيشويتام قسمت الجالية اليهودية في الجزائر حسب أقدميتها إلى مجموعتين، الأولى بمثلها القادمون من المشرق حوالي 8ق.م بعد تشتت صفوفهم، أما المجموعة الثانية، فتكّونت من اليهود النازحين من أوربا وأحفادهم من جزر البليار، إيطاليا وأوروبا الشمالية –فرنسا- إنجلترا- ابتداء من القرن 13م، ومن إسبانيا بعد سقوط غرناطة عام 1492 ليتضاعف عددهم بعد الطرد الجماعي لهم من مدن إسبانيا، للمزيد ينظر: أرزقيشويتام، **المجتمع الجزائري وفعالياته فيالعهد العثماني**، ط.1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009، ص-ص.90-91ويشير المسيري إلى أن يهود العالم العربي عامة يمكن تقسيمهم إلى اليهود المستعربة من يتحدث اللغة العربية،يهود السفاراد الذين يتحدثون اللادينو، يهود الأشكنازية الذين يتحدثون اليديشية، يهود الغرب الذين يتحدثون لغات بلادهم المختلفة فرنسية، ألمانية... ،يهود البربر في جبال الأطلسي ويتحدثون اللغات البربرية المختلفة، يهود كردستان في العراق وإيران الذين يتحدثون الكردية والآراميةينظر عبد الوهاب المسيري، **موسوعة اليهود....**، مج.4، المرجع السابق، ص-ص.377-378

(8)-التوشابيم (Tochabim) بالعبرية و(Les Tochabs) بالفرنسية. مفردها توشاب والأهالي بالعربية. أطلقت على يهود المغرب الذين عاشوا بالمنطقة قبل قدوم اليهود المطرودين من إسبانيا. ينظر: فوزي سعد الله، **يهود الجزائر هؤلاء المجهولون**، ج.1، ط.2، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005، ص-ص.153-154. وأضاف المسيري بأن الوافدين الجدد من اليهود كانوا يشيرون إلى اليهود الأصليين على أنهم "توشافيم" أي سكان أصليون أو محليون، وهي عبارة تحمل بعض الإيحاءات القدحية ينظر عبد الوهاب (المسيري)، المجلد.4، المرجع السابق، ص.378.

(9)-علي تابليت، «يهود الجزائر في الفترة العثمانية (1516-1830)»، **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، ع.(11-12)، تونس، 19معوشي)أمال، السياسية الفرنسية تجاه يهود الجزائر وأثرها في علاقتهم بالمسلمين الجزائريين (1830-95، ص167.

[10]معوشي)أمال، السياسية الفرنسية تجاه يهود الجزائر وأثرها في علاقتهم بالمسلمين الجزائريين (1830-

(11)-الشيكلة وردت عند فوزي سعد الله، على أنها صفيحة معدنية يعلقها اليهود حول أعناقهم تميزا لهم عن غيرهم، وكانت تطلق على اليهود الأهالي. ينظر: فوزي سعد الله، **يهود الجزائر هؤلاء المجهولون**، المرجع السابق، ص.154 بينما أشار مسعود كواتي إلى صعوبة تحديد معنى "الشكلة"(دون ياء) لأنها لم ترد في أهم القواميس الخاصة بالملابس العربية، ووردت في بعضها الآخر مختصرة «الشكلة علامة مميزة فرضت على اليهود» دون تفاصيل أخرى، وفي اجتهاد آخر لبعض الباحثين وصفت بأنها «قطعة من قماش ذات لون بارز» إذن الشكلة -حسبه – هي زي خاص وليس علامة مميزة ينظر: مسعود (كواتي)، المرجع السابق، ص.103 والهامش رقم 43 للصفحة 135 بينما استخدمها "شارل أندري جوليان" وصفا للقادمين من جزر البليار مع نهاية القرن الثالث عشر "الشكلين". ينظر: Charles André Julien, Op.cit., P.11.معوشي)أمال، السياسية الفرنسية تجاه يهود الجزائر وأثرها في علاقتهم بالمسلمين الجزائريين (1830-

[12]

[13]معوشي)أمال، السياسية الفرنسية تجاه يهود الجزائر وأثرها في علاقتهم بالمسلمين الجزائريين (1830-

(14)- Charles André Julien,op.cit.p.11

[15]معوشي)أمال، السياسية الفرنسية تجاه يهود الجزائر وأثرها في علاقتهم بالمسلمين الجزائريين (1830-

(16)-على تابليت، المقال السابق، ص. 167

(17)-صلاح العقاد، المقال السابق، ص. 38

(18)-الميغورشيمMégorachim بالعبرية les Mégorach بالفرنسة ومعناها الهارب أو المطارد، وقد تستعمل بمعنى المنفى أو المنبوذ، وأطلقت على اليهود الذين فروا من إسبانيا والبرتغال، حيث كان اليهود الأصليون يشيرون إلى الوافدين بهذه الكلمة ي

[19]معوشي)أمال، السياسية الفرنسية تجاه يهود الجزائر وأثرها في علاقتهم بالمسلمين الجزائريين (1830-

[20]

[21](- L.De tassy,op, cit, p-p76-77.

(22)-يصف الأسير كاثكارث فيما بين (1785-1796) الذي أصبح قنصلا لأمريكا في الجزائر حي اليهود بمدينة الجزائر:«... حيث يوجد مذبح الطائفة، الذي تتصاعد منه روائح كريهة لا تطاق، وهذا المكان وحده يكفي لأن ينبعث منه وباء الطاعون.» ينظر: جيمس كاثكارث، **مذكرات أسير الداي كاثكارث قنصل أمريكا في المغرب**، ترجمة إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص 152.

(23)- نجوى طوبال، المرجع السابق، ص. 72.